غريب فى وطنه

سافر أبو القاسم الشابى فى الحادية عشرة من عمره تقريبًا من بلدته (الشابية) إحدى ضواحى مدينة (توزر) بجنوب تونس ، إلى مدينة تونس العاصمة ليتلقى العلم بجامع الزيتونة وهو أكبر معهد علمى بتونس فى ذلك الحين ، وكان أشبه بالأزهر فى مصر .

وخلال السنوات التالية تقدمت سنه وزاد نضجه وبدأ يعى الحياة من حوله ، وفى مرحلة النضج عندما اقترب من سن العشرين أحس بالصراع الفكرى الدائر بين المحافظين الجامدين وبين المجددين المتحررين ، بين أنصار الإبقاء على العقل العربى أسيرًا للقيود القديمة والذين يريدون تحريره وفتح الآفاق العصرية أمامه .. وأخذ الشاعر جانب المجددين المتحررين ، فقد كان شابًا موهوبًا يحس بالحياة الجديدة إحساسًا قويًا عنيفًا ويدرك أن القوالب الجامدة تضيق عن التعبير الصحيح عن إحساسه الجديد . وامتزج الشاعر والثائر فى شخصية أبى القاسم وخرجت إلى الحياة تلك الشخصية الجديدة التى تمثل قوة فكرية وفنية كبيرة .

وكانت قوى المجددين تتجمع في جمعية (قدماء الصادقية) وانضم أبو القاسم إلى هذه الجمعية ، وفى الجمعية ألقى محاضرته الشهيرة عن (الخيال الشعرى عند العرب) ، وكانت طبيعة الأمور تقتضى أن ينضم هذا الشاعر الموهوب ذو المزاج الأخلاقى الذى يقدس فكرة الواجب ، ويدرك مسئوليته

العميقة نحو الآخرين .. كان لابد لشاعر هذه طبيعته وهذا مزاجه أن ينضم إلى أى جماعة ثائرة تهدف إلى تغيير ظروف المجتمع وعقليته ... ولو كان أبو القاسم الشابى مجرد شاعر رومانتيكى محبوس فى أحزانه الخاصة ، وتأملاته الذاتية لابتعد عن الحياة ، و لم يشارك فى التيار الثورى الموجود ، ولكنه كان شاعرًا حزينا تمتد جذور أحزانه إلى واقع المجتمع ، هذا الواقع الذى يثير الحزن فى النفس الحساسة ويبعث بالكآبة إلى الشعور المرهف ... و لم يكن أبو القاسم من ذوى الأمزجة السوداوية التى تميل إلى التشاؤم لمجرد التشاؤم ، بل على العكس كان من الأمزجة المحبة للحياة ، المؤمنة بقيمتها وقدسيتها ، والتى تدرك الجمال الموجود فى الطبيعة وتفهمه وتتذوقه ، ولكن الشابى كان يجد كل المعانى الجميلة فى الحياة ضائعة مبددة أمام القوى القبيحة المتخلفة ، ومن هنا كان فنانًا ثائرًا وكان فنانًا حزينًا معًا.

والشابى لم يعبر عن نفسه بالشعر فقط بل كتب كتابات نثرية قليلة ولكنها شديدة الأهمية فى الدلالة على شخصيته وأفكاره . ومن خلال هذه الكتابات النثرية نجد أنه كان يبحث عن (فكرة شاملة) حول الفن والحياة ، فكرة تكون نقطة ارتكاز ، وتستطيع أن تقدم تفسيرًا لكل شىء فى الفن والحياة معًا ، وبذلك يكون الشابى من أبرز الشعراء العرب فى القرن العشرين الذين يشغلهم البحث عن فكرة شاملة ، هذا البحث الذى هو دائمًا من شأن الشعراء الكبار الذين لا يقنعون بأن يكون شعرهم مجرد انطباعات متفرقة عن مواقف الحياة المختلفة ، بل هم يبحثون عن خيط يربط تلك المواقف بفلسفة واحدة ، ووجهة نظر أساسية فى الحياة .

ولقد استطاع الشابى أن يصل إلى هذه الفكرة الشاملة التى أقنعته وآمن بها وسماها (يقظة الإحساس) وأصبحت (يقظة الإحساس) فى نظره هى سر التقدم الحضارى والتقدم الفنى .

يقول الشابى :

(تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهى نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحق والفن والجمال ويجعل منك كتلة من شعور قدسى مشبوب ، وتسمع إلى آخر فترى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلا رنة النغم وتواتر القوافى وجمال التعبير) .

(وهذا شعب من شعوب الأرض يجدّ ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته الفنية السامية ، وحياته العلمية الراقية ، وحياته العادية المهذبة ، ومشاعره الطامحة إلى ما هو أجل من ذلك وأسمى ، إلى المثل الأعلى المحجب فى ظلام المجهول. وهذا شعب آخر منصرف إلى التبطل والفراغ ، مخلد إلى الكسل والخمول ، لا يعمل ولا ينتج ولا يجود على الإنسانية بخير ، ليس له فن ولا علم ولا أدب ولا طموح ، بل ولا حياة أيضًا ، إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل ..) .

(وعندى أن السبب الحقيقى لهذا التفاوت هو (يقظة الإحساس) فإذا تيقظ الإحساس فى قلب الشاعر والفنان - بتعبير أشمل - كان له - بالرغم عنه - استقلاله الذاتى الذى يشعره بأنه قوة حية منتجة ، من المستحيل أن تندمج فى سواها ، وأن لا تشق لنفسها سبيلا بكرا للمجد والحياة ، وكانت له كرامة تترفع عن أن تذوب فى غيرها أو أن تنحط إلى درك التقليد ، وبذلك تصبح نفسه شعلة حية نامية تتوهج فى قلب الحياة . وإذا تيقظ الإحساس فى روح الشعب تحركت فى صدره ـــ برغم كل شىء ـــ تلك الأشواق الطامحة والرغبات الجامحة التى كانت مكبلة نائمة فى ليل الدهور ، وإذ ذاك يشعر بنفسه - وإذا قلنا (يشعر بنفسه) فقد قلنا كل شىء - ويعلم أنه عضو حى فى هاته الجامعة البشرية ، عليه واجب السعى والعمل فى سبيل كمال الإنسانية المنشود ، فى سبيل مثل الحياة العليا ، فى سبيل الحق والقوة والجمال .

هذا هو تفسير الشابى لفكرته عن (يقظة الإحساس) عند الفنان وعند الشعب ، وقد حاول الشابى أن يزيد توضيح هذه الفكرة فى رسالة إلى أحد أصدقائه نشرها الأستاذ أبو القاسم محمد كرو فى كتابه عن (آثار الشابى) ...فى هذه الرسالة يقول الشابى :

(إن سبب جمود الفن العربى وأتباعه تلك الطريقة الهندسية المتشابهة التى لا تمت إلى الحياة والعمق والخيال بسبب قريب أو بعيد هى : روح الأمة العربية (القديمة) ، فهى روح مادية ساذجة ، وإنك لتنظر إلى آثارها الفنية من أدب ونقش وتصوير وميثولوجيا فلا تجد لها حظا من نفاذ الإحساس وعمق الخيال وروحانية المشاعر . حتى أن المذاهب الفلسفية التى تغلب عليها النزعة الروحانية لم تعرف سبيلا إلى نفوس العرب ، فمذهب وحدة الوجود الذى هو أعمق نظريات المتصوفة لم يشتهر به من متصوفة الأمة العربية إلا من كانوا أغرابًا عن العرب كالسهر وردى والحلاج والشمس التبريزى وجلال الدين الرومى . ولعل من الأسباب أنهم لم ينقلوا عن الهند والرومان شيئًا مما يتصل بالجانب الروحى والناحية الفنية ، فهم قد اطلعوا على أدب فارس واطلعوا على عقيدتها ، وفارس هى أقرب الشعوب الآرية شبها بالعرب من ناحية الحس والخيال ، وهم قد اطلعوا على بعض آداب الهند ولكنهم لم يدرسوا عقيدة الهند درسًا عميقًا يستطيع أن يؤثر فى تاريخهم الفنى أثره البعيد، لأن ما فيها من عمق فنى ونفاذ فى الفكر وسكرة فى الإحساس قد كان منافيا لطبيعتهم (القنوعة) الساذجة فحال بينهم وبينها ، كما أنهم لم يدرسوا تاريخ الفن بأوسع معانية لا عند الرومان ولا عند اليونان إلا قليلاً من أساطيرهم لا تكفى لشرح نظرتهم الفنية إلى هذا العالم ، ولعلهم لم ينقلوها إلا ساخرين بوثنيتهم المسكينة وبذلك وقفت آداب العرب وفنونهم فى منطقة ضيقة لا عمق فيها ولا قوة إحساس بالحياة ولا محاوبة للكون بالفهم والحس والخيال).

هذه هى وجهة نظر الشابى فى الأدب العربى القديم ، وهى وجهة نظر متطرفة وعنيفة إلى حد الخطأ ولكنها وجهة نظر صحيحة فى جانب من الجوانب ، فالقلق والشك والتجارب الروحية العنيفة الحادة التى امتلأت الآداب العالمية القديمة ـــ وخاصة الأدب اليونانى ـــ بالتعبير عنها .. كل هذا النوع من الموضوعات والقضايا والآفاق الإنسانية مفقود فى الأدب العربى إلا فى استثناءات قليلة ، مثل التأملات المبعثرة للشاعر الجاهلى طرفة بن العبد ، والتأملات الفلسفية العالية فى قصائد المتنبى الرائعة ، ولعل النموذج المتفرد فى هذا الميدان هو شعر أبى العلاء المعرى الذى امتلأ بالفكر الفلسفى والتأمل العميق فى المصير الإنسانى والتعبير عن القلق والشك الروحى الكبير .

وسر هذه الظاهرة فى الأدب العربى القديم ظاهرة نقص التعبير عن القلق الكبير هو أن الحياة العربية كانت حياة عملية بسيطة محدودة غير معقدة لا تكاد تتيح فرصة للتجارب الروحية الكبرى التى تعرض لها شعب مثل الشعب اليونانى القديم ، ذلك الشعب الذى انشغل انشغالاً فلسفيًا وأدبيًا واسعًا بمصير الإنسان فى هذا الكون ، فظهر فيه فلاسفة فى مثل قامة سقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور ، كما ظهر فيه أدباء فى مثل قامة أسخيلوس ويوربيدس . ولقد كان الشعب اليونانى القديم شعبًا وثنيًا مثل الشعب العربى فى الجاهلية ولكن الوثنية اليونانية امتزجت امتزاجًا عميقًا بالفن والجمال والفلسفة والأساطير ، أما الوثنية العربية فكانت وثنية فقيرة محدودة القيمة ضيقة الأفق لا تكاد تربطها صلة بالفن والجمال والفلسفة والأساطير اللهم إلا فى حدود شديدة الضيق .

ثم جاءت التجربة الروحية والحضارية الكبرى فى حياة العرب وهى ظهور الإسلام . ولكن حضارة العرب بعد الإسلام قامت على اليقين الدينى الصارم وعلى تحديد مكان لكل شىء فى هذا الوجود وفى صورة ثابتة

لا تحتمل الشك ولا تقبله .. فالله فى مكانه والإنسان فى مكانه والكـــون فى مكانه ولا تبديل لشىء ولا مجال للجموح الفكرى أو الوجدانى بالنسبة لهذه القضايا على الإطلاق .

هذه بعض الأسباب التى حددت انطلاق الأدب العربى القديم وكان لهـــا من الآثار ما سجله أبو القاسم الشابى فى رسالته التى أشرنا إليها والتى كتبـــها إلى أحد أصدقائه وعبر فيها عن ملاحظاته الحادة القاسية عن الأدب العـــربى القديم . ولا شك طبعًا أن نظرة الشابى تتجاهل كثيرًا من القيم الأصـــيلة فى الأدب العربى القديم ، ولكن الشابى له عذره لأنه يحمل نظرة جديدة إلى الفن والحياة لم يجد لها صدى فى الأدب العربى القديم فثار وتمـــرد ليفـــتح البـــاب لنفسه ولغيره حتى يقدموا ذلك الأدب الجديد الذى يريده الشابى ويؤمن به .

ونعود إلى فكرة (يقظة الإحساس) عند الشابى ... إن يقظة الإحساس عند هذا الشاعر الثائر هى التفتح على المعانى الواسعة العميقة فى الحياة الإنـــسانية والتطلع إلى معرفة الطبيعة معرفة عميقة ، وإلى معرفة أسرار التجربة البشرية فى هذا العالم معرفة واسعة أيضًا ، والتجربة البشرية تشمل التصوف والأســـاطير التى حاول الإنسان فى بعض العصور أن يعرف من خلالها حقيقة الوجود .

وهكذا يتطلع الشابى إلى مستويات جديدة فى الفن ، ويريـــد للإحـــساس العربى الجديد أن يكون على غاية من التيقظ لما يدور فى الكون ، وألا يغفـــل أبدًا عن أسرار الحياة وهمسات قلبها ، وكل ما يدور فيها حتى ولو كـــان فى الظل ، بعيدًا عن الأضواء .

ويحاول الشابى أن يدفع بنظرته إلى أقصى درجاتها فى محاضرته عن (الخيال الشعرى عند العرب) والتى طبعت فى كتاب مستقل بعد أن ألقاها الشاعر فى (جمعية قدماء الصادقية) ، ولقد كانت هذه المحاضرة سببًا فى ثورة المحافظين عليه ،واتهامه بالزندقة الأدبية والزندقة الدينية لأنه هاجم الإيمان المطلق بالأدب

العربى القديم ، بل هاجم الأدب القديم هجوم من يريد تجديد الروح العربية ، وتوسيع الآفاق أمام النفس العربية .

فى هذه المحاضرة يقول الشابى :

(إن الأدب العربى غنى بالخيال الصناعى أو الخيال المجازى وهو خيال المجاز والاستعارة والتشبيه وغير هاته من براعات الألفاظ والتعابير التى أشبعتها البلاغة على اختلاقها بحثًا ودرسًا .

ولكن هذا النوع من الخيال المألوف إن دل على بعض نواح خاصة من روح الأمة فهو لا يدل على مقدار شعورها بتيار الحياة كعضو حى فى هذا الوجود ،ولكن هناك نوعًا آخر من الخيال اتخذه الإنسان لا للتزويق والتشويق ، ولكن ليتفهم من ورائه سرائر وخفايا الوجود ، وأسميه (بالخيال الفنى) لأن فيه تتطبع النظرة الفنية التى يلقيها الإنسان على هذا العالم الكبير ، وأسميه أيضًا (الخيال الشعرى) لأنه يضرب بجذوره إلى أبعد غور فى صميم الشعور ، فالخيال الشعرى بهذا المعنى العميق الذى تلتقى فيه الروح الفنية والفلسفة فى آن ، والذى نفهم منه نفسية الأمة وندرك ما الذى لآفاقها الروحية من عمق وسعة وضياء .. ذلك النوع من الخيال هو الذى حرم منه الأدب القديم .

بهذه الأفكار الحية العنيفة انطلق أبو القاسم الشابى يواجه العقلية الأدبية الجامدة التى كانت شائعة فى تونس ذلك الوقت ، بل كانت شائعة فى الوطن العربى كله ، رغم البدايات الجديدة العميمة التى ظهرت فى الأدب العربى ، مثل حركة الشعر المهجرى ، وظهور جماعة (أبوللو) فى مصر ، وظهور حركة العقاد وشكرى والمازنى من قبل . إلا أن الشابى كان أبرز شاعر عربى حتى قيام الحرب العالمية نادى – نظريًا – بضرورة التجديد وآمن فى نفس الوقت بدعوته وتحمس لها وطبقها فى شعره بأمانة ، فنحن نجد أن العقاد مثلاً نادى بالتجديد الشعرى وبتحرير القصيدة العربية من القيود القديمة ومن بينها ربط

القصيدة بالمناسبات المختلفة مثل المدح والهجاء والرثاء والتهانى ومع ذلك نجد أن دواوينه مليئة بقصائد كثيرة من هذا اللون رغم أن هذه الدواوين تحمل – للإنصاف – نماذج شعرية كثيرة تعبر عن وجهة نظر العقاد فى الشعر ، أما الشعراء المجددون اللامعون فى جيل الشابى من أمثال علىّ طه محمود وإبراهيم ناجى فلم يكن لهم دعوة نظرية يدعون إليها أو يكتبون بناء عليها ، بل كانوا يقدمون شعرهم دون أن يربطوا بينه وبين أى دعوة نظرية ينادون بها ويدافعون عنها . أما الشابى فقد كانت له دعوته النظرية التى ينادى بها ويدعو إلى ثورة شعرية تقوم على أساسها ، وهو فى نفس الوقت يطبق دعوته بصدق وإخلاص وتوافق تام مع دعوته نحس به فى قصائده المختلفة ، وعندما نتصفح ديوان الشابى لا نعثر فيه على قصيدة مدح أو هجاء أو ما يشبه هذه الموضوعات التى ورثناها عن الأدب العربى القديم ، ويرجع ذلك إلى أن نظرة الشابى للشعر كانت نظرة رفيعة ، كان يقدس الشعر ويقدس وظيفته فى الحياة الإنسانية ويرفض أن يكون الشعر أداة للأغراض والموضوعات المؤقتة العاجلة، ولو أخذنا شعراء جيله البارزين مثل ناجى وعلى محمود طه ومحمود حسن إسماعيل لوجدناهم جميعًا يكتبون فى هذه الموضوعات التى رفضها الشابى رفضًا نهائيًا ، واقتصر فى شعره على الموضوعات الإنسانية العميقة التى يجد فيها مجالاً لتأملاته وأفكاره ومشاعره ، وهنا يتميز الشابى على شعراء جيله ، فهو لم يكن (منقادًا) إلى التجديد بسبب أحاسيس عامة غامضة ولكنه كان يصدر فى تجديده عن نظرة فكرية وإنسانية أحسها وفهمها فهمًا صحيحًا صادقًا .

وإذا كان أبناء جيل الشابى ومدرسته الرومانسية من الشعراء يعودون (أحيانًا) إلى الموضوعات التقليدية ، فإن شعراء الجيل القديم وأدباءه والذين كانوا يسيطرون تقريبًا على الحياة الأدبية فى الوطن العربى كانوا يعيشون على المفهوم القديم للشعر ويحرسونه حراسة عنيفة ، وكانت الموضوعات

القديمة من مدح وهجاء ورثاء وتهنئة هى المادة الشعرية الأساسية ، وكانت (الخطابة) هى الطابع النغمى لشعراء هذه المدرسة التقليدية المسيطرة ، وكانت هذه المدرسة بالطبع تمجد الماضى الأدبى تمجيدًا مطلقًا ولا تجد فيه عيبًا أو نقطة ضعف بل تجد العيب والضعف فى الخروج على هذه التقاليد والثورة عليها ، ولذلك كان ظهور الشابى خطرًا على هذه المدرسة وعلى أنصارها الكثيرين ، وقد لقى الشابى ما يستحقه شاعر جرىء جديد الإحساس والتفكير من عداء وكراهية ، فهاجمه كثيرون فى بلده ، وحاولوا أن يعزلوه عن جماهير القراء ويشككوا فى قيمته الشعرية ، وقد نجحوا إلى حد ما فى الوصول إلى بعض ما كانوا يهدفون إليه ، وكان نجاحهم هذا سببًا من أسباب اكتئاب الشاعر وحزنه وإحساسه بالغربة فى وطنه ، وقد بلغ هذا الإحساس بالغربة أحيانًا حدًا عنيفًا دفع بالشاعر إلى نوع من الشعور بأنه يقف وحده .. وحده تمامًا فى بلاده ، فأبناء شعبه لا يسمعون نداءه إلى (يقظة الإحساس) بالحياة ، ولا هم يسمعون نداءه إلى الحيوية والتمرد والإقدام فى مقاومة الظلم السائد فى المجتمع.

وقد عبر الشابى عن أزمته المعنوية تعبيرًا مباشرًا فى بعض أوراقه التى وصلتنا من مذكراته الشخصية ، يقول الشابى فى جزء من مذكراته قبل وفاته بأربع سنوات تقريبًا :

(أشعر أنى غريب فى هذا الوجود ، وأننى ما ازداد يوما فى هذا العالم إلا وأزداد غربة بين أبناء الحياة وشعورًا بمعانى هذه الغربة الأليمة ، غربة من يطوف مجاهل الأرض ويجوب أقاصى المجهول ثم يأتى ليحدث قومه عن رحلاته البعيدة فلا يجد واحدًا منهم يفهم من لغة نفسه شيئًا) .

ثم يصرخ فى صوت منخفض ولكنه ملى بالألم :

(الآن أدركت أنى غريب بين أبناء بلادى .. وتلك مأساة قلبى الدامية) .

وهو يعبر عن إحساسه بالغربة أيضًا فى قصيدته المشهورة (النبى المجهول) فيقول :

أيها الشعب ليتنى كنت حطّابـًا ... فأهوى على الجـذوع بفأسى
أنت روح غبيـة تكـره النـور ... وتقضى الدهور فى ليل ملس[1]
إننى ذاهب إلى الغاب يا شعـبى ... لأقضى الحياة وحـدى بيأسى
ثم أنساك ما استطعت فمـا أنت ... بأهـل لخمـرتى ولكأسـى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى ... وأفضى لها بأحـزان نفسـى

هذا هو حصاد معركته مع الحياة والمجتمع ... مجـدد متوثـب الفكـر والروح وسط عقول محافظة جامدة متعلقة بالقـديم . طمـوح إلى الحريـة والانطلاق وسط شعب سحقته التقاليد القديمة وأفسدت روحه أنظمة الحكم الاستعمارية . إنها غربة الإنسان الموهوب الذى سبق عصره ، وحمل فى قلبـه وعقله صورة المستقبل الذى لم يكن كثيرون يستطيعون تصوره فى ذلك الحين

(1) الملس : هو الظلام الشديد .